The Structure of Narrative Place in Sheikh Mohammed Bin Rashid"s Biography of (My story As A Sample)

Asst. Prof. Najeya Ali Rashid Alkharji, (PHD)
nalkharji@hct.ac.ae
HCT – Sharjah Women's College- UAE

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v1i146.4009

Abstract:

Interest in autobiography emerged as an independent narrative genre at the end of the nineteenth century, which made it technically qualified for analysis according to the latest narrative theories. The biography of Sheikh Mohammed Bin Rashid is subjected to this analytical study to reveal the structure of the narrative place. The study revealed six spatial axes presented by the text, which are: types of places, when multiple types of places appeared that formed this axis, such as: the private place, and the place The closed, and the geometrical place... The second axis presented the significance of the place, such as: significance, expressiveness, symbolic significance, and functional significance. Through the third axis, the research presented the functions of the place, where the functional roles played by the place were revealed. Such as the cognitive role, the educational role, and the critical role, within the external functions of the place, contributing to the consolidation of human relations, and revealing the feelings of personalities within the internal functions of the place. The fourth axis showed the relationship between space and time, to emphasize the inseparability of the relationship between them by revealing how space and time relate. The fifth axis identified the place and its relationship to the description when it dealt with the aesthetics of the narrative place in the biography by highlighting the descriptive images of the place, which contributed to revealing the political, historical, social, and economic contents of the place. This increases the reader's connection to the text. Thus, the importance of the sixth axis emerged in emphasizing the extent of the role played by the place in the text's completion by linking the six axes included in the study.

key words: structure - narrative – place

بنية المكان السردي في سيرة الشيخ محمد بن راشد قصتي إنموذجاً

أستاذ مساعد الدكتورة ناجية الخرجي
كليات التقنية العليا– دولة الامارات العربية

(مُلَخَّصُ البَحث)

ظهر الاهتمام بالسيرة الذاتية بوصفها جنساً سردياً مستقلاً بذاته مع نهايات القرن التاسع عشر، مما جعلها مؤهله فنياً للتحليل وفق أحدث النظريات السردية. وقد تم إخضاع سيرة الشيخ محمد بن راشد، لهذه الدراسة التحليلية، للكشف عن بنية المكان السردي فيها، اذ كشفت الدراسة عن ستة محاور مكانية يقدمها النص، هي: أنواع المكان، عندما ظهرت أنماط متعددة للأماكن التي شكلت هذا المحور مثل: المكان الخاص، والمكان المغلق، والمكان الهندسي... وقدم المحور الثاني دلالة المكان مثل: الدلالة، التعبيرية، والدلالة الرمزية، والدلالة الوظيفية...

ومن خلال المحور الثالث عرض البحث وظائف المكان، اذ تم الكشف عن الأدوار الوظيفية التي لعبها المكان؛ كالدور المعرفي، والدور التعليمي، والدور النقدي... ضمن الوظائف الخارجية للمكان، والإسهام في توطيد العلاقات الإنسانية، والكشف عن مشاعر الشخصيات ضمن الوظائف الداخلية للمكان. وجاء المحور الرابع ليبين العلاقة بين المكان والزمن، وذلك للتأكيد على تلازمية العلاقة بينهما من خلال الكشف عن كيفية الارتباط بين المكان والزمن.

وحدد المحور الخامس المكان وعلاقته بالوصف حين عالج جماليات المكان السردي في السيرة بإبراز الصور الوصفية للمكان والتي أسهم في الكشف عن المضامين السياسية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية للمكان؛ مما زاد من ارتباط القارئ بالنص.

هكذا برزت أهمية المحور السادس في التأكيد على مدى الدور الذي لعبه المكان في إنجاز النص من خلال الربط بين المحاور الستة التي تضمنتها الدراسة.

الكلمات المفتاحية: بنية– سرد– مكان

المقدمة

استطاعت السيرة الذاتية أنْ تنحت لنفسها مساراً مستقلاً بين الأجناس السردية الأخرى مثل الرواية والقصة والمسرحية، بوصفها تتمتع بفية خاصة بها؛ فهي من ناحية تنتمي شكلاً إلى السرد، من حيث اعتمادها على سارد يروي وشخصيات تطلع بالأحداث التي تجري في مكان محدد وزمن معين. وهي من ناحية المضمون تختلف عن الرواية والقصة والمسرحية بابتعادها عن الأحداث المتخيلة؛ إذ تعبر السيرة عن جوانب من حياة مؤلفها– إذا كانت سيرة ذاتية أو حياة شخص آخر، تتم الكتابة عنه، إذا كانت سيرة غيرية.

وإذا كانت رواية قصتي(للشيخ محمد بن راشد) تنتمي بامتياز إلى فن السيرة الذاتية فقد استطاعت استثمار عناصر السرد، ولاسيما المكان السردي الذي تم توضيفه فنياً، ليمثل بذلك الإطار الجغرافي الحاضر في سيرة الشيخ محمد.

وقد برز المكان في النص مع السارد، بحيث بدا جلياً أنّ رواية قصتي صارت سيرة للشيخ محمد ووثيقة سياسية وتاريخية واجتماعية. في مدينة دبي.

من هنا، تتجلى أهمية تحليل المكان السردي في السيرة، اذ أدت سطوته على العناصر السردية الأخرى إلى إفراد بحث مستقل للكشف عن أدواره الفنية والجمالية في السيرة، وهذا كان السبب الرئيس لرصد تجليات المكان، من أجل التأكيد على وجهة نظري في بانتماء السيرة الذاتية إلى الأجناس السردية.

ولعل أهم الصعوبات التي واجهتها قد تمثلت في عدم وجود دراسات، اهتمت بتحليل رواية قصتي، مما جعلني انطلق من نقطة تسم بحثي بالتفرد؛ إذ إنه البحث الأول الذي يخصص دراسة تحليلية عن بنية المكان السردي في سيرة الشيخ محمد بن راشد.

وقد جاء عنوان الدراسة (بنية المكان في السيرة الذاتية/ رواية قصتي للشيخ محمد بن راشد إنموذجاً) متفقاً مع ما ذهبت إليه آنفاً، والمتمثل في محاولة الربط بين الشكل والمضمون. وقد استعنت بالعديد من المراجع الأجنبية والعربية من أجل إنجاز هذه الدراسة، كان في مقدمتها بالطبع (قصتي) سيرة الشيخ محمد بن راشد، فضلا عن قاموس السرديات لجيرالد برنس، وكتاب تحليل الخطاب الأدبي لمحمد عزام، وكتاب القارئ والنص والعلامة والدلالة لسيزا القاسم.

وقد اتبعت الدراسة المنهج التحليلي الوصفي الذي يناسب طبيعة الموضوع؛ فقمت أولاً برصد الأشكال المكانية التي قدمتها السيرة، ثم تصنيفها تبعاً لموضوعات البحث، وأخيراً تحليلها للكشف عن جمالياتها الفنية ومدى إسهامها في بناء النص. ومن أجل التحديد، ستتألف الدراسة من مدخل نظري وستة محاور بين مقدمة وخاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

ويجيء المدخل في صدر هذه الدراسة على صورة تأطير نظري لشرح معنى البنية واستعراض أهم النظريات الحديثة التي تناولت المكان السردي بالدراسة والتحليل. ويستعرض المحور الأول (أنواع المكان) الأشكال المكانية التي تم رصدها في سيرة الشيخ محمد بن راشد.

ويكشف المحور الثاني (دلالة المكانة) عن انتقال المكان من بعده الجغرافي إلى أبعاده الدلالية، من خلال الكشف عما انطوى عليه المكان من دلالات جمالية، زادت من قيمته الفنية في النص. ويتناول المحور الثالث (وظائف المكان) تعدد الأدوار الوظيفية التي يلعبها المكان، والتي أسهمت في تعميق وجهة النظر في بناء المكان السردي بوصفه كائناً حياً يسهم في إثراء الموضوع، وليس جماداً يفتقد للروح والفاعلية.

ويعالج المحور الرابع (العلاقة بين المكان والزمن) العلاقة بين المكان السردي بوصفه يمثل الزمن في سكونيته وبين الزمن السردي الذي يعد المكان في حركيته. ويأتي المحور الخامس (المكان وعلاقته بالوصف) لاستعراض الصور الوصفية التي قدمها المؤلف لإبراز جمالية المكان السردي، من خلال قيامه بحشد تفاصيل صغيرة، أسهمت مجتمعةً في إبراز الصورة الكلية للمكان الموصوف.

ويلقي المحور السادس (أهمية المكان) الضوء على الأدوار الفنية والجمالية التي لعبها المكان، والتي برزت من خلال المحاور الخمسة السابقة؛ فمن خلال هذا المحور تم ربط محاور البحث ببعضها بالتأكيد على أهمية المكان السردي في إنجاز النص على مستوى الشكل والمضمون.

وتنتهي هذه الدراسة بالخاتمة التي تمثل عود على بدء، متضمة خلاصة الدراسة وأهم النتائج التي توصلت إليها من خلال قيامي بتحليل بنية المكان السردي في سيرة الشيخ محمد بن راشد. وأخيراً، سيتم تذييل هذه الدراسة بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها، والتي تم ترتيبها ألفبائياً بأسماء مؤلفيها.

مدخل

يرتبط الاستعمال الإصطلاحي للبنية – أساساً– بالهيكل العام لبناء النص من جهة، وبطريقة بناء هذا الهيكل وتشكيلة من جهة أخرى. وقد عرّف جيرالد برنس البنيوية بأنها" شبكة العلاقات الحاصلة بين المكونات العديدة للكل وبين كل مكّون على حده والكل") برنس، جيرالد، ٢٠٠٣م، ص١٩١).

وذكر جبور عبدالنور "أنّ البنوية نظرية قائمة على تحديد وظائف العناصر الداخلة في تركيب اللغة، ومبنية أنّ هذه الوظائف المحددة بمجموعة من الموازنات والمقابلات، هي مندرجة في منظومات واضحة " (عبدالنور، جبور، ١٩٧٩م، ص ٥٢).

من خلال ما سبق، يتضح أنّ البنيوية بناء نظري للأشياء، يسمح يشرح علاقاتها الداخلية، وبتفسير الأثر المتبادل بين هذه العلاقات....وأي عنصر من عناصرها، لا يمكن فهمه إلاّ قي إطار علاقته في النسق الكلي الذي يعطيه مكانته في النسق" (مرشد أحمد، ٢٠٠م، ص١٩). وإذا كانت البنية تعنى بمعمار النص فإن تحليل أي نص لا يكتمل دون الربط بين الشكل والمضمون. وقد اتسمت البنيوية في حقل الدراسات النقدية التي تعنى بالشكل بثلاث سمات رئيسة، هي:

أ- الشمولية (الكلية): ويقصد بها" اتساق وتناسق البنية داخلياً أي أنّ وحدات البنية تتسم بالكمال الذاتي، وليست مجرد وحدات مستقلة جمعت معاً قصراً وتعسفاً، بل هي إجزاء تتبع أنظمة داخلية من شأنها أنْ تحدد طبيعة الأجزاء وطبيعة اكتمال البنية ذاتها" (الرويلي ميجان، البازغي سعد، ٢٠٠٢م، ص٧٠).

ب- التحولات: ويعنى بها أنّ " البنية غير ثابته وإنما هي التحول وتظل تولد من داخلها بنى التوثب، والجملة الواحدة يتمحض عنها آلاف الجمل التي تبدو جديدة، مع أنها لا تخرج عن قواعد النظم اللغوي للجمل"(الغذامي عبدالله، ١٩٩٧م، ص٣٤).

ج-الضبط الذاتي: ويشير هذا التعريف إلى أنه " في وسع البنيات تنظيم نفسها بنفسها مما يحفظ لها وحدتها، ويكفل لها المحافظة على بقائها ويحقق لها ضرباً من " الانغلاق الذاتي". بمعنى هذا أنّ البنيات قوانينيها الخاصة التي لا تجعل التي لا تجعل منها مجرد " مجموعات " ناتجة عن تراكمات عرضية أو ناجمة عن تلاقي بعض العوامل الخارجية المستقلة عنها، بل هي " أنسقة" مترابطة، تنظم ذاتها"(إبراهيم زكريا، د.ت، ص٣٠).

ويعد المكان أحد العناصر التي تسهم في تشكيل البنية السردية لأي نص من خلال تصنيف أنواع الأماكن التي يشتمل عليها كل نص سردي، وتحديد وظيفته، ثم إبراز المقومات الجمالية والدلالية للمكان داخل النص السردي. ومن هنا، عرف جيرالد برنس المكان بأنه" الأمكنة التي تقع فيها المواقف والأحداث المعروضة."(برنس جيرالد، مرجع سابق، ص١٨٢). وهذا يعني أن المكان في العمل السردي يمثل " العالم الواسع الذي يشمل مجموع الأحداث الروائية ويشمل جميع الأشياء المحيطة بنا، فالمقهى او المنزل أو الشارع أو الساحة كل واحد منها يعتبر مكاناً محدداً "(الحميداني حميد، ١٩٩١م، ص٦٣).

كما حدد حسن بحراوي الدور الوظيفي للمكان داخل النص، اذ عده" عنصراً متحّكماً في الوظيفة الحكائية والرمزية للسرد، وذلك بفضل بنيته الخاصة والعلائق المترتبة عنها، وإذن فالمكان ليس عنصراً زائداً في الرواية؛ فهو يتخذ أشكالاً ويتضمن معاني عديدة بل إنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله" (بحراوي حسن، ١٩٩٠، ص٣٢).

ويعد جاستون باشلار واحداً من المهتمين بدراسة المكان،اذ فرق بينه وبين الحيز معتبراً المكان أكثر اتساعاً من الحيز، حيث وصفه بأنه " كوناً حقيقياً بكل ما للكلمة من معنى" (باشلار غاستون، ١٩٨٤م، ص٣٦).

كما ميز عبدالملك مرتاض أيضاً بين المكان والحيز راسماً الحدود الفاصلة بينهما، اذ قال: " إذا كان للمكان حدود تحده ونهاية ينتهي إليها؛ فإنّ الحيز لا حدود له ولا انتهاء؛ فهو المجال الفسيح الذي يتبارى في مضطربه كتاب الرواية...ولا يجوز لأي عمل سردي (حكاية –خرافة –قصة – رواية) أن يضطرب بمعزل عن الحيز الذي هو عنصر مركزي في تشكيل العمل الروائي حيث يمكن ربطه بالشخصية واللغة والحدث ربطاً عفوياً " (مرتاض عبدالملك، ١٩٩٨م، ص، ١٢٥).

هكذا، يتضح لدينا أنّ المكان يعد عاملاً رئيساً في عملية السرد، اذ يتجاوز كونه المساحة التي تتحرك فيها الشخصيات إلى الإسهام في إثراء النص السردي، من خلال التأثير في أحداث النص وشخصياته، وهو ما يتبدى جلياً في دراستنا في بنية المكان السردي في كتاب قصتي للشيخ محمد بن راشد التي ستنهض على ستة محاور رئيسة:

*أنواع المكان

* دلالة المكان

*وظائف المكان

*العلاقة بين المكان والزمان

*المكان وعلاقته بالوصف

*أهمية المكان

أولاً: أنواع المكان

كما تعددت أنواع الشخصيات والزمن في النص السردي اختلفت أيضاً أنواع الأماكن، مما يسهم في إثراء عالم النص السردي، حيث يعمد المؤلف إلى التنويع في الأشكال المكانية، من أجل تجاوز البعد الأبعاد الجغرافية للمكان؛ إذ يصير المكان عنصراً نابضاً بالحياة داخل النص.

أ–المكان العام: ويتجلى في كونه ليس ملكاً لأحد، وإنما ينبع من سلطة الدولة التي يمثلها الحاكم، حيث تظهر سلطة الحاكم في تنظيم السلوك، والفرد فيها يخضع لقوانين وضوابط.

ويبدو هذا الأمر واضحاً في حديث الشيخ محمد بن راشد عن مدينة دبي التي أرادها أنْ تكون دانة الدنيا وهو ما تحقق عبر رحلة استغرقت ما يزيد عن ١٨٥ سنة بدأت مع الجد المؤسس الشيخ بطي، ويلخص الشيخ محمد تجربة دبي الناجحة في السطور التالية: " وصية جدي لنا التنوع الاقتصادي وعدم الاعتماد على مصدر واحد؛ وهو ما سار عليه أبي الشيخ

راشد من خلال بناء الموانئ وتوسيع الخور، وتطوير المناطق الحرة والمطار، وإطلاق الشركات الكبرى" (آل مكتوم محمد بن راشد، ٢٠١٨م، ص٥١).

فالحلم بدأ بوصية للجد المؤسس، استطاع الأبناء والأحفاد من بعده أنْ يحولوها إلى واقع معيش، وتجلى هذا الحلم في الرؤيا الثاقبة للجد المؤسس بأنّ الاقتصاد هو عصب أي نهضة حضارية؛ فاستثمر الأبناء والأحفاد هذا الحلم عن طريق التوسع في تشيد المباني وتعبيد الطرق وإنشاء الموانئ والمطارات وغيرها.

ب- المكان الخاص: إذا كان المكان العام يقع تحت سطوة الدولة فإنّ المكان الخاص يقع ضمن ملكية أفراد خاصين بعينهم، ويستعيد الشيخ محمد الحنين إلى طفولته في بيت أسرته، حيث مازالت ذكرياته مع والدته عالقةً في مخيلته، وما زالت رائحة طعامها تداعب أنفه، يقول: " كنت أحب الاستيقاظ مبكراً، كنت أصحو قبل جميع من في المنزل لأجد الشيخة لطيفة مستيقظة قبلي، تعد لنا الفطور رغم وجود من يخدمها في البيت. لا أزال أذكر رائحة خبز أمي، وأذكر حديثها معي في الصباحات الباكرة" (آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص٣٣-٣٤).

إن حالة النوستالجيا التي تتبدى من خلال المقطع السابق تكشف بجلاء عن أنّ الذكريات القديمة هي التي تطفو على سطح ذاكرة الشيخ محمد بن راشد الذي لم تنسه مظاهر التحضر أصوله البسيطة؛ فراح يستعرض مشاهد من طفولته في استعادة بعض تفاصيل هذه الحياة وأيامه في منزله مع أخوته تحت رعاية والدته الشيخة لطيفة التي كانت تحرص على تحضير الطعام بنفسها على الرغم من وجود من يخدمها في ذلك البيت الكبير إذا ما قيس ببيوت العامة.

ج- المكان اللامتناهي: ويشمل هذا النوع الأماكن المفتوحة التي لا تحدها حدود، ولا تبلغ نهايتها الأبصار؛ فهي" الأرض التي لا تخضع لسلطة أحد مثل الصحراء التي لا يملكها أحد "(جنداري إبراهيم، ٢٠٠٣م، ص٢٥٧).

والصحراء -بكل ما تحمله من معاني- حاضرة في ذاكرة الشيخ محمد بن راشد؛ فعلى رمالها تلقى أول دروسه في الحياة، حيث فتحت له هذه الصحراء نافذة على معترك الحياة الكبير، ويصور الشيخ محمد بن راشد تجربته مع الصحراء في وصف شيّق حين يخبرنا: " ما بين الرابعة والثامنة من عمري، علمني أبي الكثير عن الصحراء، وكيف يمكن أنْ تعيش حياة كاملة فيها، رغم ما يظهر عليها من قسوة المظهر وقلة الموارد واتساع قد يخيف الكثير من الناس. بين الرابعة والثامنة علمني والدي كيفية تعقب الأثر أو قراءة الرمال كما لو أنك تتصفح كتاباً "(آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص ٢٧).

فإذا كان الشيخ محمد بن راشد يعيش في مدينة حضارية فإنّ جذوره ما زالت تضرب عميقاً في رمال الصحراء التي تشرب من قسوتها الصلابة وقوة العزم؛ فالصحراء كانت للمؤلف بمثابة الكتاب المفتوح الذي تعلم منه الشجاعة وفنون القتال، وقراءة الأثر؛ فالتصق بها والتصقت به وشكلا ثنائياً متغاماً.

د- المكان المغلق: وهو مكان يختلف عن سابقه بانغلاقيته، اذ يتسم بحدود واضحة تحدد مساحته، لكنه يخلّف في نفس الشخصية أثراً ما، قد يظل يلقي بظلاله على حياتها لمراحل طويلة.

ويرسم لنا الشيخ محمد بن راشد صورة حميمية في تلك الحجرة، التي مثلت عالمه الكبير رغم ضيق مساحتها، اذ أطلعنا كاتب السيرة على تفاصيل هذه الصورة معبراً بقوله: " نمَت هذه الرغبة في أنْ يكون لدي كهفي الخاص عندما كنت صغيراً. كانت لدينا غرفة صغيرة، أرضها رملية، في الجزء الغربي من قصر زعبيل. وكان والدي يحتفظ في تلك الغرفة بصقور الصيد. وبعد أن كثرت مشاغل والدي، طلب مني الاهتمام بالغرفة، اهتممت بها، ولكن على طريقي "(آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص٧٢).

لقد وفق الكاتب في استعمال لفظ كهف؛ فالعمران الذي تعيشه الإنسانية حديثاً بدأ من كهف في عصور سحيقة، حيث يشبه المؤلف حجرته الصغيرة بالكهف، ويصف لنا كيف كان والده يحتفظ فيها بعدد من صقور الصيد التي تولى بنفسه رعايتها بسبب انشغال الوالد، ولعل مسؤولية المؤلف عن هذه الحجرة الضيقة هي من أهلته بعد ذلك لتحمل مزيد من المسؤوليات الجسام التي ألقيت على عاتقه.

هـ- المكان الهندسي: وهو نوع من الأماكن يتم وصف أبعاده الخارجية والداخلية في النص بدقة وعدم تحيز.

ويتذكر مؤلف السيرة قيامه بأول زيارة خارجية إلى إيران بصحبة والدة للمشاركة في الاحتفال الذي أقامه شاه إيران بمناسبة مرور ٢٥٠٠ سنة على الإمبراطورية الفارسية؛ فيصف الشيخ محمد مكان الاحتفال على هذا النحو الدقيق؛ فيقول" دعي إلى الحفل الرؤساء والملوك من كل بقاع الأرض. غطت ٥٩ خيمة أكثر من ١٦٠ فداناً، تتوسطها ثلاث خيم ملكية ضخمة في حديقة لا مثيل لها، تم إنشاؤها خصوصاً للحفل" (آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص١٥).

إنّ المقطع السابق يكشف عن قوة ملاحظة المؤلف الذي استطاع بنظرة إلى المكان المتواجد فيه أنْ يرسم أبعاده الهندسية محدداً مساحته بمئة وستين فداناً، وهي ميزة اتصف بها شاه إيران في إعداد أماكن الاحتفالات، وبذخ المناسبات.

و-المكان كتجربة معيشة: وهو مكان عاشت فيه الشخصية ثم ابتعدت عنه، لكن المكان ظل حاضراً في مخيلتها من خلال إثارة الذكريات التي عاشتها الشخصية في هذا المكان، التي لم تنسها على الرغم من تعدد الأماكن التي انتقلت إليها؛ فهو " المكان الممسوك بوساطة الخيال لن يظل مكاناً محايداً خاضعاً لقياسات وتقييم مساحة الأراضي، لقد عيش فيه، لا بشكل وضعي بل بكل ما للخيال من تحيز" (البنا بان، ٢٠٠٩م، ص٣١).

ويتجلى حنين المؤلف للصحراء عندما أقام في لندن من خلال المقارنة بين المشاعر الدافئة لأهله وجيرانه في الصحراء وبين مشاعر الإنجليز الفاترة في هذا المقطع الذي يقول فيه: " لم تكن التحية الرسمية هنا واجبة للأشخاص الذين نعرفهم، بينما كنا في الصحراء نقف لنلقي التحية على أي كانَ؛ سواء الأخ أو الأخت أو حتى أحد الموظفين. أعجبت بأسلوب التعامل البسيط والمتواضع، إذ لا يقف الناس عند دخول أحد ما إلى الغرفة، لا بل كانوا يندهشون عندما يقف أحدهم لدى دخول شخص إلى الغرفة "(آل مكتوم، محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص ١١٢-١١٣).

يشير هذا المقطع إلى أنّ المؤلف لم يكن يحيا في الصحراء فحسب، بل أنّ الصحراء أيضاً كانت تحيا داخله؛ فقد أشار إلى ذلك الحضور للصحراء من خلال المقارنة بين عادات الإنجليز وبين عادات أهله في الصحراء كاشفاً عن برود الإنجليز في مقابل دفء العلاقات الحميمية لدى العرب.

ز-المكان المتحرك: للمكان المتحرك حضور طاغ في سيرة الشيخ محمد بن راشد من خلال حديث المؤلف عن الطائرة والسفينة والمسبار الفضائي... وغيرها، وهو نمط من الأماكن يختلف عن المكان الثابت في كونه يتسم بالحركة، لكن له تأثير على مجريات الأحداث في النص.

ونختار القوارب التي تجوب في عرض البحر في موسم الغوص كأهم معلم للأماكن المتحركة في سيرة الشيخ محمد بن راشد، حيث يقول: "خلال تلك الرحلات كنت أساعد في عملية التحضير، كتحميل القوارب بالمؤن، وهي كميات قليلة من التمور واللحوم المجففة والمياه "(آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص١٠٠).

لقد برز الدور الريادي الذي أنيط للشيخ محمد بن راشد وهو تحميل المؤن إلى هذه القوارب فترة الغوص، حيث شكلت هذه القوارب -بما تعود به من خيرات -المورد الرئيس لأفراد شعب الإمارات الذين اعتمدوا على ما يجلبه البحر لهم من رزق، ولم يتوان المؤلف عن وصف دورة ودور زملائه، فضلاً عن أنّ المراكب والقوارب مثلت معلماً بيئياً بارزاً لدولة الإمارات التي تعد إحدى الدول الساحلية التي تمتد شواطئها على ساحل الخليج وساحل

عمان، أضف إلى أنّ القوارب عبرت عن حقبة تاريخية مهمة وفاصلة في تأريخ دولة الإمارات.

ثانياً: دلالة المكان

إنّ النظرة إلى المكان لا تقف عند وصف ملامحه الجغرافية، بوصفه يمثل الحيز الذي يستوعب أحداث أي نص سردي، بل يتعين على المؤلف أنْ يتجاوز في نظرته للمكان المستوى الظاهري له إلى ما وراء ذلك من مستويات دلالية، تمنح المكان ثراءً فنياً، يجعل منه عنصراً فاعلاً نابضاً بالحياة في بناء العمل السردي. ويمكن رصد جماليات الدلالة المكانية من خلال الأنواع الآتية :

أ-الدلالة التعبيرية: يلجأ المؤلف أو كاتب السيرة أحياناً إلى الخيال لرسم معالم مكان من أجل إطفاء مسحة جمالية عليه، لا تتحقق من خلال رسم الصورة الحقيقية لهذا المكان.

وقد "ظهر الإصطلاح -أول ما ظهر- عام ١٠١٠، وهو من ابتداع الفنان الفرنسي (هارف)، وقد استعمله الكتاب النمساوي (هرمان بار)، في الأدب عام ١٩١٤"(الحاني ناصر، د.ت، ص٢٩).

ولعل الهدف من رسم الصورة التعبيرية للمكان ليس إبراز القيمة الجمالية للمكان بقدر ما يستهدف هذا التعبير إحداث أثر فني في نفس المتلقي، فغاية التعبيريين تنهض على " وقع الأشياء والإحساس بها وما تثيره من إحساس لدى المتلقي، وذلك من خلال الإيحاء والرمز والدلالة، حيث يتم في ضوئها بناء المكان من خلال تحديد خصائصه ومميزاته وإيجاد الحلول الجمالية في ضوء ذلك "(عبد المسلم طاهر، ٢٠٠٠م، ص٢٠٠).

ويصف مؤلف السيرة العاصفة التي ضربت دبي عام ١٩٦١م في مشهد لم تعرفه دبي من قبل على الاطلاق من خلال حشد عناصر الطبيعة لرسم مدى الأهوال التي صحبت العاصفة، وحجم الخسائر التي خلفتها، يقول الشيخ محمد " أذكر وأنا في العاشرة من عمري حديث كبار السن ممن شهدوا زمن جدي الشيخ سعيد عن تغير البحر وأحواله، وعن عودة الصيادين بقصص من البحر، لا تحدث عندنا، وعن مجيء أسماك غريبة من أعماق البحر للشاطئ، وعن انتشار الطحالب في مناطق لا تناسب معيشتها، وتحليق طيور النورس في سماء دبي صورة غير مسبوقة وغير مفهومة. تحدث كبار السن عن طائر الحبارى وأرنب الصحراء، وتغيير بعض عادتهما، وتحدثوا عن صخب الرياح وهياجها بغير ما تعودنا عليه، وتحدثوا عن علامات وإشارات بهبوب عاصفة عاتية شديدة على دبي، قالوا بأنها ستكون مثل يوم القيامة... البيوت لحقها دمار شديد، أشجار النخيل طارت في الهواء، مثل ألعاب الصبيان، زوارق وقوارب الصيد قذفتها الريح في شوارع بعيدة داخل المدينة " آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص٥٣-٥٥).

لقد وضعنا المؤلف في قلب العاصفة، عندما تحدث عن التغيرات السلبية التي طرأت على المكان، منذ الإرهاصات التي سبقت هبوب العاصفة، وأثناء اجتياحها لدبي ثم تبعات ضَرْب العاصفة للساحل والمدينة؛ فالمكان الجغرافي تبدلت صورته، حيث لم يعد كالسابق، بل أصبح أثراً بعد عين، وتكبدت دبي خسائر فادحة.

كما استطاع المؤلف من خلال هذه الصورة التعبيرية أنْ يكشف عن ضعف الإنسان في ذلك الوقت حيال قوى الطبيعة الغاشمة التي وإنْ حطمت الأشياء المادية إلاّ أنها لم تقدر على تحطيم العزائم والإرادة.

ب- الدلالة الدينية: تمتلك الأماكن الدينية طاقة روحانية عالية، تؤثر في نفوس المؤمنين، وتمنحهم سعادة غامرة عند مشاهدة أو زيارة ذلك المكان. وقد تنوعت الأماكن الدينية عبر الحضارات والثقافات المختلفة؛ فالمصريون القدماء قدسوا نهر النيل، وشعب الإغريق قدسوا جبل الأولم ... وغيرها الكثير مما تزخر به الملاحم الكبرى.

ويتجلى أثر هذا الإلهام الذي يمنحه المكان الديني في نفس المؤلف عندما زار البيت الحرام لأداء مناسك الحج، حيث تفاعلت ننفسه القلقة مع قداسة المكان، حتى ألهمه الله بداية الطريق لإنشاء جيش موحد للدولة الوليدة، عندها ارتاح بال مؤلف السيرة واطمأنّ قلبه وهدأت روحه؛ فيصف المؤلف هذه اللحظات الخاصة بقوله: "جلست وحدي في مكة. وصليت كثيراً. ودعوت الله طويلاً هدأت زوبعة أفكاري في مكة، وغمرني الكثير من الصفاء والسكون وبدأت أفكر بشكل معمق ومطول للإجابة على العديد من الأسئلة الكبرى أمامي" (آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص١٣٦).

فحالة العزلة الجغرافية والروحية التي يعيشها المؤمن داخل المكان المقدس تمنح نفسه الطمأنينة؛ فيصفى عقله، وينشرح صدره، ويعيش حالة من تجلي الروح والبصر؛ لتنفتح أمامه أبواباً لعوالم غير مرئية لم يكن ليلجها وسط سخب الحياة المادية التي كان يعيشها، ومن هنا تتجلى القيمة المعنوية للمكان الديني المقدس التي تميزه عما سواه من الأماكن الأخرى.

ج-الدلالة الرمزية: يكتسب المكان دلالات رمزية موحية، ترتفع بقيمته الجمالية عن صورته الفيزيائية، وذلك من خلال عملية انزياح لغوي يقوم بها المؤلف؛ ليعطي بها إشارة فنية لما يريد قوله، وتتجلى أهمية منح المكان دلالة رمزية وفنية عالية تحدثها، كما يضيف مزيداً من القيم " الرمزية والأيدلوجية بتجسيد المكان وضرورة دراسة هذا الجانب واعتباره وجها من وجوه دلالة المكان"(عباس إبراهيم، د.ت، ص٢٥). وبعد استقلال الإمارات، لم يكن الإنجليز واثقين في قدرة قيادات الدولة الوليدة على الاطلاع بأعباء الحكم؛ فكانت الإشارة الرامزة التي عرضها المؤلف من خلال موقف الغليون دلالة واضحة على السخرية من

المحتل، وتأكيداً على قدرة القيادة الجديدة على إدارة الدولة الفتية؛ إذ عبر المؤلف عن اختلاف حجم غليون رئيس وزراء بريطانيا عن حجم غليون الشيخ راشد، من خلال لعبة المفارقة الرامزة عن قوة الدولة الجديدة رغم صغر مساحتها، يقول مؤلف السيرة: "أومأ ويلسون برأسه ونظر إلى غليونه وهو يقول: انظر، غليوني أكبر بكثير من غليونك.

"ابتسم والدي ثم نظر إليّ وقال: قل لويلسون إنني متفق معه بأنّ غليونه أكبر، ولكن على الرغم من أنّ غليوني صغير إلا أنّ التبغ المستعمل يه ثقيل وقوي للغاية "(آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص١٤٦).

إنّ المقطع السابق يكشف عن حدة ذكاء صاحب السمو الشيخ راشد وسرعة بديهته، عندما رد على إشارة لويلسون الساخرة؛ فرد له حاكم دبي الصاع صاعين حين رد بقوله: إنّ العبرة ليست في حجم الغليون؛ فغليونه وإنْ كان صغيراً إلاّ أنّ التبع الذي يحتويه أقوى من التبغ الذي غليون لويلسون، وهي إشارة رامزة إلى أنّ قوة البلدان لا تقاس بمساحتها الجغرافية وإنما تقاس بقوة رجالها

د-الدلالة الوظيفية: ويقصد بها منح المكان وظيفة ما تحقق له خصوصية، تميزه عن الأماكن الأخرى، بهدف الإيحاء بالقيمة الجمالية والفنية لهذا المكان.

وقد عبر مؤلف السيرة عن عشقه لارتياد القمم العالية، واجتياز أي حواجز قد تعوقه عن بلوغ مرامه؛ حيث حلم الشيخ محمد بوضع الإمارات بمكان آخر مختلف عن محيطها الإقليمي؛ فكان الحلم لإطلاق مسمار الأمل كأول تجربة رائدة تضع دولة الإمارات في مصاف الدول الكبرى.

وقد أطلعنا المؤلف على تفاصيل ذلك الحلم بقوله: "نعمل على المشروع منذ أعوام بهدوء. تأكدت من إتمام كافة الاتفاقات الدولية في هذا الخصوص وأنّ الفريق مهيأ في إجراء الاختبارات في أقرب فرصة تأكدت أيضاً بأن المشروع يحمل الرسالة التي أريد إيصالها، وهي: "لا مستحيل أمام دولة الإمارات، ولا قوة يمكن أن تقف أمام إرادة شعبها " (آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص٨).

إنّ المؤلف يؤكد على حقيقة راسخة مفادها أنّ مسبار الأمل وغيره من المشاريع العملاقة الأخرى ليست نهاية المطاف؛ فبداية الصعود إلى ذروة الجبل يدأت بحلم، ثم سارت واقعاً ماثلاً للعيان بإطلاق مسبار الأمل الذي يحمل دلالة وظيفية تؤكد على أنّ أحلام قادة الإمارات باتساع هذا الفضاء اللانهائي.

هـ- الدلالة التاريخية. يؤدي المكان وظيفة تاريخية إذا اتسم بالقسم أو جرت فيه أحداث تاريخية مهمة، تمنحه طابعاً تاريخياً مميزاً.

ولعل أبرز هذه الأماكن التي عني كاتب السيرة بسرد تاريخها هي مدينة دبي التي برز اهتمام المؤلف بها من خلال تنوع الحديث عنها على مدار صفحات الكتاب، لِمَ لا والمؤلف هو حاتكم إمارة دبي الذي ينحدر من أسرة حكمت الإمارة منذ حوالى ١٨٥ سنة.

وقد استهل الشيخ محمد بن راشد حديثه عن أسلافه المؤسسين بهذا المقطع " بدأت رحلة دبي مع الشيخ مكتوم بن بطي في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وهو الحاكم الذي رسخ الإرث الحالي للعائلة ووضع حجر الأساس لإمارة دبي، وكان هدفة الأول جعل دبي مكاناً آمناً لكل سكانها. ثم خلفه شقيقه سعيد بن بطي الذي أرسى عدالة مطلقة في الإمارة الناشئة....بدأ جدي الشيخ سعيد بن مكتوم مدة حكمة التي استمرت نحو خمسة عقود في العام ١٩١٢م. فشهد عدد سكان دبي في عهده زيادة كبيرة، وازدهرت التجارة البحرية في مجال الأقمشة والأعشاب والبخور وغيرها "(آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص٤٧-٤٨).

إنّ نجاح دبي لم ينشأ من فراغ؛ لأن أي بناء ينشأ من العدم فينهار سريعاً، وإنما كان إزدهار دبي ثمرة جهود أجداد الشيخ محمد وآبائه الذين لم ينس جهودكم وهو بصدد الحديث عن نهضة دبي؛ فكل واحد من هؤلاء الأسلاف لم يبخل بقطرة عرق واحدة في إسهامه بوضع لبنة لهذا الصرح العظيم الذي وإنْ لم تمهلهم الحياة فرصة لرؤيته، إلاّ أنه لا شك كان ماثلاً في عيونهم ومخيلاتهم وهم يخططون لمستقبل دبي.

و-الدلالة السياسية: يبقى المكان مجرد وجود فيزيقي حتى يكتسب قيمة فنية وجمالية عندما تمنحه إحدى الشخصيات دلالة رمزية أو أسطورية كما يكتسب دوراً وظيفياً داخل النص تبعاً لنوع الحدث الذي مورس فيه، عندها يخرج المكان من ضيق الحيز الجغرافي إلى رحابة الفن والجمال. ونختار (خيمة الاجتماعات) إنموذجاً لنمط المكان الذي يؤدي وظيفة سياسية، حيث تجاوزت الخيمة وظعيتها المعروفة إلى مكان احتضن أهم حدث في تأريخ دولة الإمارات والمتمثل في(ولادة دولة الإمارات).

وقد عبر المؤلف عن تفاصيل ما جري من أحداث مهمة داخل الخيمة الشمالية بقوله: "كنت قد سبقت الشيخين بنفسي لاختيار المكان. كنت الأكثر معرفة بالصحراء بين أخوتي، وكان والدي واثقاً بحسن اختياري مكان اللقاء. نصبت خيمتين؛ واحدة للشيخين حيث جعلت موقعها مواجها لنسيم الصحراء العليل، وثانية لنا لنجلس فيها. اشعلت النار لطهي الطعام وفي قلبي نار من الحماسة والإثارة لمثل هذا اليوم الذي عرفت بإنه سيكون له ما بعده" (آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص١١٨). إنّ اختيار الخيمة كان موفقاً إلى حد كبير لما تمثله الخيمة من معلم بارز يميز أهل البادية؛ فكان الاجتماع في الخيمة حميماً مفعماً بمشاعر الود والحب والأصالة التي يتتميز بها الشعب الإماراتي، وهذا ما كان له أنْ

يتحقق- على هذا النحو المرضي- إذا انعقد الاجتماع داخل جدران صماء تفتقد هذا الطابع الحميم.

ز-**الدلالة النفسية:** قد يرتبط الإنسان شعورياً بمكان ما؛ فتنشأ بينه وبين هذا المكان علاقة خاصة قد تكون إيجابية أو سلبية، تعكس مشاعر الشخصية تجاه المكان إما حباً أو كراهيةً.

وقد أشار مؤلف السيرة في أكثر من موضع في كتابه إلى الأثر الإيجابي الذي خلفته الصحراء في بناء شخصيته؛ فجعلته إنساناً قوي الشكيمة على استعداد لخوض التحديات الكبرى قبل الصغرى، مما أعانه على تجاوز المخاوف والعقبات التي واجهها في كوهيما، والتي وصفها بأنها لا تقارن إذا قيست بكم المصاعب والأهوال التي عاشها في الصحراء، حيث يعبر الشيخ محمد عن مشاعره تلك قائلاً: "مع بداية التدريبات العسكرية في منطقة دارتمور، سادت أجواء من الرهبة والفزع ثكنات سرية كوهيما بسبب صعوبة التدريبات وقسوة الظروف الطبيعية التي كنا نواجهها. كانت لدي أفضلية في هذا الموضوع؛ فأنا متعود على أجواء الصحراء والمبيت فيها والتعامل مع أخطارها ومعرفة إتجاهاتها والسير فيها "(آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص١٢٩-١٣٠).

إنّ صلابة روح الشيخ محمد وقوة عزيمته التي اكتسبها من الصحراء منذ نعومة أظافره منحته مزيداً من المناعة ضد الخوف والوهن؛ لهذا لم ير- في قسوة التدريبات في كوهيما وصرامة معلميها- عناءً يذكر إذا ما قورنت بقسوة الصحراء.

ثالثاً وظائف المكان:

لا تقف دراسة بنية المكان في أي نص سردي عند استعراض أنواعه، وتحليل دلالته، وإنما تتجاوز ذلك إلى الكشف عن الوظائف التي يؤديها المكان داخل النص بوصفه أحد أهم المكونات السردية في بناء أي عمل؛ فالمكان يساهم في " خلق المعنى داخل الرواية ولا يكون دائماً تابعاً أو سلبياً إنه أحياناً يمكن أن يحول عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن موقف الأبطال في العالم "(لحميداني حميد، مرجع سابق، ص٧٠). ويمكن تقسيم وظائف المكان إلى وظائف خارجية ووظائف داخلية.

أ-الوظائف الخارجية:

يؤدي المكان وظيفة غير جوهرية في صلتها بالنص المنجز، اذ تنزاح هذه الوظيفة لغوياً عن سيرورة المسارات السردية داخل النص لتؤدي ثلاثة أدوار رئيسة داخل النص هي:

١-**الدور المعرفي:** يتعلق هذا الدور الوظيفي الخارجي للمكان بإبراز " معطيات البيئة في المستويات الاجتماعية والاقتصادية التي تحيل عليها الأماكن بسماتها المختلفة "(مرشد أحمد، مرجع سابق، ص٢١١).

وقد رسم الشيخ محمد في سيرته الذاتية صورة، للبنية الاجتماعية لواقع عاشه وعايَشَه، حشد في هذه الصورة من التفاصيل الدقيقة ما كشف به عن عادات الصيد في الصحراء والروابط الاجتماعية التي تربط مجتمع الإمارات حاضرهم وباديهم، بل عن معاناته مع عقارب الصحراء؛ ليؤكد الشيخ محمد أن ما وصلت إليه دبي من رخاء وازدهار لم يأت مصادفة، بل جاء من رحم المعاناة منذ البدايات.

وقد جاءت تفاصيل هذه الصورة الاجتماعية على النحو التالي:" بعد يوم مليء بالصيد ودروسه، كنا نجتمع حول النار للعشاء والحديث الذي لا يمل. ذكريات لا زالت محفورة في ذاكرتي بجمالها وشغفها، وحتى بآلامها. نعم آلامها؛ لا يعادل دفء الفراش في الصحراء الباردة بالليل أي شيء. لكنني كنت استيقظ مرات عدة على لدغات العقارب يبدو أنها كانت تبحث عن الدفء أيضاً في فراشي" (أل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص٢٢).

٢- **الدور التعليمي:** يتحقق هذا الدور عندما يطرح المكان جملة من المعارف والمعلومات بوساطة مؤلف العمل، حيث " نجدها عادة في القصص التاريخية وفي جميع القصص التي توضح جملة من المعلومات التاريخية أو غيرها، وهنا يكون المكان وما يتصل به مجرد أداة لتحقيق هذه الوظيفة "(قسومة الصادق، د.ت، ص٦٠).

ويبرز هذا الدور التعليمي في سياسية الشيخ راشد الذي أرسى القواعد الأولى في بناء شخصية الشيخ محمد بن راشد من خلال الدروس التي أثرت في تكوين فكر مؤلف السيرة على المدى القريب والبعيد، اذ يقول سموه: " بدأ الشيخ راشد حكمه بطاقة وحماسة كبيرة عالية وروح متقدة. كل يوم في حكم راشد كان مدرسة بالنسبة لي. في كل يوم فكرة، ومشروع، وحكمة. أذكر أنه من القرارات الأولى التي اتخذها راشد بعد توليه مسؤولية الحكم تأسيس مجالس للبلدية والتجار وغيرهم من الأشخاص الموهوبين في مجتمعنا،....كان أول درس تلقيته على يد راشد" (آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص٦٧).

٣- **الدور النقدي:** يتحول المكان أحياناً إلى أداة نقدية من خلال ما يطرحه المؤلف من آراء سياسية أو فكرية أو اجتماعية، حيث يستعين المؤلف بالمكان بتمرير آرائه وأفكاره. وقد عرض كاتب السيرة قضيةً شائكة، تمثلت في التفاوت الشاسع بين الفقر الشديد الذي تعيشه كثير من القرى الإيرانية وبين حالة البذخ التي شاهدها الشيخ محمد أثناء حضوره احتفال ملك الملوك؛ فتعلم الشيخ محمد واحداً من أهم دروس حياته التي وضعها في اعتباره أثناء توليه حكم دبي، حيث تتمثل هذه المقارنة من خلال هذا المقطع" أكبر درس هو المقارنة بين طريقة الشاة في الحكم وطريقتنا في دبي والإمارات على اختلاف حجم البلدين. لقد شاهدت في الطريق عشرات القرى الإيرانية الفقيرة والمتواضعة، التي لا توجد فيها حتى الكهرباء،

وشاهدت هذا البذخ الأسطوري، صورتان متناقضتان تجتمعان في المكان ذاته "(آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص ١٥-١٦).

ب-الوظائف الداخلية:

يتحكم المكان في مجريات الأحداث من خلال وصف مشاعر الشخصيات وتحديد علاقاتها؛ تتكون لدى الشخصية وجهة نظر خاصة تجاه هذا المكان بعيدة عن المعالم الحقيقية لهذا المكان، ومن الوظائف الداخلية التي تمنح الشخصية مجالاً لإعادة تشكيل المكان وفق رؤيتها الخاصة:

١- وظيفة تحفيزية: " يسهم المكان في إثارة مشاعر الشخصية؛ مما يجعلها تقوم بعملية تداعي، تقطع بها سيرورة الحكاية، لتطلعنا على أحداث وقعت في الماضي ترتبط بالمكان ذاته؛ فالدور التحفيزي للمكان يلعب دوراً في " انبعاث الأحداث الروائية بفعل اختراق الشخصية للمكان، فتتداعى الأحداث الماضية التي وقعت في المكان نفسه، والمكان ينهض بإنجاز هذه الوظيفة في مسار الحكي "(مرشد أحمد، مرجع سابق، ص٢١٧).

ومن النص نختار هذا المقطع الذي يكشف عن الدور التحفيزي للمكان، يقول المؤلف: "كان جميلاً على وطني الإمارات، وصلنا فيه إلى مرحلة جديدة من التنمية، ونتطلع إلى الوصول إلى مراحل أعظم وأكبر، لا أدي ما الذي دفعني يومها للتفكير في البدايات المتواضعة والجميلة أيضاً.

بيت جدي الشيخ سعيد في الشندغة، الجدران الطينية التي تتخللها الحجارة المرجانية للسماح لنسمات الهواء بأن تمر، الغرف ذات السقوف المنخفضة، الساحة التي كنت ألعب فيها أمام البيت" (آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص١٠).

إنّ حديث المؤلف عن حاضر دبي، وتطلعه لرسم مستقبلاً زاهر للمدينة لم ينسه تذكر أيام الطفولة في بيت الجد، حيث أوقف المؤلف السرد مفسحاً المجال لتدفق مشاعره الجياشة تجاه أسلافه، وكأنما أراد التأكيد على أنّ ما وصلت إليه دبي ما كان له أنْ يتحقق لولا جهود الأسلاف المضنية مع معاناة البداية وسط الظروف القاسية التي واجهتهم.

٢-الكشف عن مشاعر شخصيات السيرة: يمارس المكان دور المحفز على إذكاء نار المشاعر داخل الشخصية؛ للكشف عن علاقاتها الوطيدة مع شخصية أخرى، حيث يغدو المكان هنا معادلاً موضوعياً للتعبير عن هذه المشاعر. ويصف الشيخ محمد بن راشد تشييع جثمان والدته بعبارات مؤثرة تقطر بالأسى والحزن على فراق أم دبي، اذ يخبرنا من بين دموعه وآهاته الملتاعة عن مرافقته لجسد والدته الشيخة لطيفة حتى نزوله القبر يقول: " سجيتها في مثواها الأخير ودموعي لا تتوقف، ثم خرجت من القبر. عند خروجي سقطت ساعتي بجانبها. انعقد لساني من هول اللحظة، لم استطع الكلام، نظرت إليها، ونظرت إلى

ساعتي بجوارها؛ وألم فظيع يعتصر قلبي؛ وصوت ما يهمس في داخلي: شيء مني معها "(آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص٤٣-٤٤).

فالقبر لم يكن ذلك التجويف المظلم الذي ضم جثمان الشيخة لطيفة، بل صار معادلاً موضوعياً عبّر به الكاتب عن فقدانه لجزء من حياته ومشاعره، انغلق عليها باب القبر، ولا يمكن استعادتها بأي حال من الأحوال.

وكان لسقوط ساعة الشيخ محمد بن راشد في القبر إشارة موحية لرغبته في احتفاظ والدة بتذكار منه، وللتناغم الشديد بينهما؛ فكأنهما صارا بذلك روحين في جسد واحد.

٣-توطيد العلاقات الحميمة بين شخصيات السيرة: يؤدي اجتماع شخصيات عدة في مكان واحد إلى نشوء علاقات وطيدة بينها جميعاً، أو بين شخصية وأخرى؛ فيكون المكان الجغرافي هو الباعث أو المحفز على توطيد أواصر هذه العلاقة.

وقد تعددت الشخصيات التي جمعتها بمؤلف السيرة علاقات حميمية عبر الشيخ محمد عنها في أكثر من موضع من السيرة، مثل حميد بن عمهي، ووالده، والشيخ زايد، الذي اختصه المؤلف بكلمات تعبر عن دفء مشاعره للشيخ زايد يقول: " كان الاجتماع مع حكيم آخر يحكم أبوظبي منذ عامين فقط، هو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، أبي الثاني ومعلمي ومرشدي وقائدي على مدى أربعة عقود كاملة...كان اجتماع الشيخين في منطقة عرقوب السديرة، الكائنة بين أبوظبي ودبي هي اللحظة التاريخية التي حولت حلم الاتحاد إلى حقيقة " (آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص١١٧).

الواضح من المقطع أنّ العلاقة بين الشيخ محمد والشيخ زايد لم تكن علاقة رسمية، تجمع رئيساً بمرؤوسه، بل كانت علاقة الابن بالأب والتلميذ بالمعلم؛ فكان الشيخ زايد بحكمته هو الملهم الذي استقى منه الشيخ محمد كثيراً من خبراته في الحياة والقيادة، عندما اجتمع به في الخيمة المخصصة لاجتماع الشيخ راشد بالشيخ زايد والتي شهدت ولادة دولة الإمارات.

٤-الإسهام في تغيير حياة الشخصية: يتجاوز المكان الوظيفة البنائية داخل النص إلى القيام بدور دلالي يشير إلى انتقال الشخصية من مكان له طبيعته إلى مكان آخر يختلف في طبيعته عن الأول. ويصور كاتب السيرة هذه المشاعر التي انتابته عندما وصل بيت مضيفته السيدة " سمرز"، وهذه المشاعر عبر عنها بقوله: " في أغسطس من عام ١٩٦٦، وصلت إلى منزل السيدة " سمرز"...تأملت هذه المرأة التي تبدو عليها علامات اللطف والطيبة، تأملتني....ثم طلبت مني اللحاق بها لأرى غرفتي ...وبمجرد أن أغلقت باب غرفتي انتابتني مشاعر الحنين للوطن والأهل والأحبة. أمضيت معظم وقتي خلال مدة الظهيرة في الصلاة والدعاء" (آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص١١٠).

وإذا كان الشيخ محمد قد غادر دبي بجسده إلا أنها حاضرة دائماً في ذهنه وقلبه من خلال فعل التذكر والاسترجاع للمقارنة بين طبيعتين مختلفتين، اذ كشف عن رحابة الصحراء وضيق لندن، وبين دفء مشاعر أهله، وجفاف مشاعر الإنجليز.

رابعاً: العلاقة بين المكان والزمان:

لا يمكن من –خلال أي دراسة إجرائية نص سردي– الفصل بين المكان والزمن؛ فالعلاقة بينهما تلازمية، إذ لا وجود لأحدهما دون الآخر؛ فالمكان في حركته يمثل مظهراً زمنياً والزمن في سكونه هو مكان، اذ تتجلى" العلاقة بين الزمان والمكان بما يمكن أنْ نسميه بالعالم العاري والقوة شبه الخفية، إنّ عالم المكان عالم عار، ظاهر للعيان يمكننا أنْ نراه ونلمسه ونتحقق من وجوده، بينما في حالة الزمن فإننا نحس بقوة ولكننا لا نستطيع أنْ نراه بشكل مباشر وإنما من خلال ما يفعله بنا وبالناس والأشياء من حولنا. حقاً إنه لقوة شبه خفية وشبه مرئية أيضاً."(النعيمي، أحمد، ٢٠٠٤م، ص٧٦)، أو بعبارة أخرى " أنّ المكان بالمعنى الفيزيقي أكثر إلتصاقاً بحياة البشر ،اذ أنّ خبرة الإنسان بالمكان وإدراكه له يختلفان عن خبرته وإدراكه للزمان، فبينما يدرك الزمان إدراكاً غير مباشر من خلال فعله في الأشياء "(قاسم سيزا، ٢٠٠٢م، ص٣٧).

ونختار من سيرة الشيخ محمد بن راشد هذا المقطع الذي يتجلى فيه تضافر المكان مع الزمان، اذ يقول المؤلف" منذ العام ١٩٦٨ وحتى العام ١٩٧١ كنا في سباق مع الزمن؛ سباق لتأمين أهم اتفاق عربي اتفاق مازال سارياً حتى اليوم، اتفاق كانت نتيجته دولة الإمارات العربية المتحدة، الدولة العربية الوحيدة التي قامت نتيجة اتحاد العرب وليس تقسيمهم، الدولة الوحيدة التي قامت نتيجة انضمام مناطق عربية بالاتفاق وليس ضمها بالقوة، الدولة الوحيدة التي أثبتت أنّ العرب يمكن أنْ يتفقوا ويعملوا كفريق واحد "(آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص١٤٩).

لقد احتوى المقطع على إشارة زمنية، هي المدة بين عامي (١٩٦٨–١٩٧١)، ثم إشارة مكانية، هي قيام دولة الإمارات، حيث برز أثر هذه السنوات الثلاث على المكان الفيزيقي، وهي الفترة الزمنية التي احتاجها القائمون على الاتحاد ليعلنوا تشكل الدولة الجديدة، بوصفها حيزاً جغرافياً. من هنا نلاحظ هذه العلاقة بين المكان والزمن؛ فالمكان تحددت معالمه، ورسمت حدوده خلال المدة الزمنية التي حددها المؤلف في بداية المقطع.

خامساً المكان وعلاقته بالوصف:

إنّ الوصف في العمل السردي ليس غاية بحد ذاته، بل ينبغي للوصف أنْ يكون وسيلة فنية يستعملها المؤلف من أجل تحديد الحيز الذي تتحرك فيه الشخصيات، وللإحاطة بالمكان بتحديد بعديْه الأفقي والعمودي، وذلك بإثارة مخيلة القارئ.

وهذا يعني أنّ وصف المكان قد مرّ بمراحل متعددة بداية من الرواية الواقعية التي انصرف فيها الوصف إلى " تحديد المجال العام الذي يتحرك فيه الأبطال، فإنّ الوصف في الروايات الجديدة أصبح، فضلا عن ذلك يميل إلى الدقة المتناهية في قياس المسافات بحثاً عن هندسة حقيقية للمكان" (بحراوي حسن، مرجع سابق، ص٣٣). كما رأى آلان روب جرييه أن الوصف يسهم في الكشف عن مضامين النص من خلال إبراز علاقة الشخصية به فيقول: " إنّ هذا الديكور صورة للإنسان: كل حائط وكل قطعة أثاث في الدار كانت بديلاً للشخصية التي تسكن هذه الدار غنية أو فقيرة، قاسية أو عظيمة" (جرييه آلان روب، د.ت، ص١٢٩، ١٣٠).

وقد رسم مؤلف السيرة صورة وصفية لدبي وبيروت، جاءت معالمها على النحو الآتي: " ذكرياتي الأولى مع بيروت كانت من بدايات حياتي وأنا صغير؛ وأنا القادم من صحراء دبي، من بيوتها الطينية، من شواعها الترابية، من أسواقها المبنيّة من سعف النخيل. سافرت مع إخوتي إلى بيروت. كان لابد من المرور بها للوصول إلى لندن. أذهلتني صغيراً، وعشقتها يافعاً، وحزنت عليها كبيراً. كانت شوارعها النظيفة، وحاراتها الجميلة، وأسواقها الحديثة في بداية الستينيات مصدر إلهام لي" (آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص٢٢٥).

لقد استطاع المؤلف من خلال الصورة الفنية أن يثير خيال القارئ بجذب انتباهه إلى المضمون الذي يريد الافصاح عنه؛ فمن خلال المقارنة بين بساطة ديكور دبي المتمثل في بيوتها الطينية، وحاراتها الضيقة، وبين فخامة ديكور بيروت بشوارعها الواسعة وحاراتها النظيفة، كشف المؤلف عن المستوى الاقتصادي والاجتماعي –أنذاك– بين دبي وبيروت التي صارت من يومها مصدر إلهام للشيخ محمد .

هذا على مستوى المضمون، أما على مستوى الشكل فقد استطاع المؤلف أنْ يحدد المدة الزمنية التي يتحدث عنها من خلال الكشف عن المستوى الأفقي للمكان، كذا برز الحدث المتمثل في تذكر الشيخ محمد لأيام طفولته في دبي، وأيام شبابه في بيروت، من خلال إبراز المستوى الرأسي للمكانين الموصوفين: دبي– بيروت.

سادساً: أهمية المكان:

لابد لأي مؤلف أن يولي عناية ولاسيما بالمكان بوصفه أحد أهم مكونات البناء السردي للنص؛ فلا يجب على المؤلف الاكتفاء برسم المعالم الخارجية للمكان فحسب ، بل يتعين عليه النظر إلى المكان بوصفه كائناً حياً يؤثر في سلوك الشخصيات بقدر ما يتأثر بها. من هنا، تجلت قيمة الاهتمام بالمكان، وذلك بالربط بين المكان والمنتسبين إليه؛؛ فالرحلة عبر المكان " تكون قادرة على الدخول بالقارئ إلى فضاء السرد ويأتي اهتمام كثير من الروائيين بالمكان انطلاقاً من الاستجابة النفسية والتواجد في محيطه" (القاضي عبدالمنعم زكريا، ٢٠٠م، ص١٣٩).

والمكان في كتاب قصتي لم يكن مجرد حيز سردي، وإنما تحرر من أغلال النظريات النقدية؛ ليغدو عنصراً فاعلاً ومؤثراً تبدأ منه الأحداث وتنتهي إليه؛ فدبي هي المكان الرئيس الحاضر بصحرائها وبحرها وبيوتها وميناؤها ومطارها، ذلك الحضور الذي يأجج مشاعر الشيخ محمد بن راشد من خلال حرص المؤلف على إبراز العلاقة بالمكان؛ فدبي ماثلة في حله وترحاله، حتى شعرنا انّ المؤلف والمكان قد صار كياناً واحداً، وهو ما تجلى منذ العنوان الأول في كتاب (قصتي)، حيث حرص الشيخ محمد على التأكيد على هذه الحقيقة من خلال العبارة المقتضبة التي جعلها عنواناً لأول موضوع في السيرة، يقول:" من هنا بدأنا وهنا وصلنا" (آل مكتوم محمد بن راشد، مصدر سابق، ص٨).

لقد منح هذا العنوان السيرة بناءها الدائري؛ فما بين قوله: " كان صباحاً جميلاً على وطني الإمارات، وصلنا فيه إلى مرحلة جديدة من التنمية، ونتطلع إلى مراحل أعظم وأكبر. لا أعرف ما الذي دفعني يومها للبدايات المتواضعة والجميلة "(آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص١٠).

وقوله في الوصية العاشرة: " انطلق لبناء الحياة! نحن محظوظون لأننا نعمل في الحكومات. وظيفتنا ليست وظيفة عادية، وظيفتا أجمل ما في حياتنا" (آل مكتوم محمد بن راشد، المصدر نفسه، ص٣٠٦).

تتكشف لنا فلسفة الشيخ محمد المتمثلة في أنّ الحياة رحلة طويلة، لها بداية، ولا يعرف لها نهاية، تلك الفلسفة التي تعلمها كاتب السيرة من خلال رحلة في المكان الذي عاش فيه، وعايشه، بكل تفاصيله؛ فذكريات المؤلف حاضرة ماثلة أمام عينية ولا تفارقه كظله الذي يعبر عن شخصه، كاشفاً عن حبه العميق لكل ذرة رمل تحملها دبي.

هكذا بدا جلياً أنّ المكان السردي هو حجر الزاوية في البناء المعماري لكتاب قصتي، سواء على مستوى الشكل بإفراد مواضيع كاملة عن دبي بفضاءاتها المختلفة أو على مستوى المضمون من خلال التأثير والتأثر بدبي المكان الأثير لقلب المؤلف الذي لم يتعامل مع

المدينة باعتباره حاكماً لها، وإنما ربطته به حاله من العشق والوجد، ظهرت بوضوح في اللغة الشاعرية التي صاغ بها الشيخ محمد هذه السيرة التي لم تكن في الحقيقة سيرته الشخصية بل هي أيضاً سيرة دبي.

الخاتمة:

هكذا، يمكن القول إنّ دراسة بنية المكان السردي، في سيرة الشيخ محمد بن راشد كشفت عن أنّ المكان لعب دوراً بارزاً في إنجاز النص، ولا يمكننا الانتهاء من هذه القراءة النقدية من دون استعراض أهم النتائج التي توصلت إليها:

بعد هذه الجولة التحليلية لنص قصتي خلصت الدراسة إلى العديد من النتائج التي تمثل إعادة تأطير للدراسة برمتها، ويمكن عرض هذه الاستنتاجات في النقاط الآتية:

أ- حظي المكان السردي بعناية كثير من النقاد الذين أفردوا له العديد من الدراسات، أكدوا من خلالها على أهميته في بناء أي نص سردي، من خلال التأكيد على الدور الفني للمكان وأثره على الشخصيات والأحداث، متجاوزين بذلك النظرة التقليدية للمكان بوصفة الحيز الجغرافي الذي تتحرك فيه الشخصيات.

ب- رغم أنّ سيرة الشيخ محمد بن راشد تنتمي إلى السيرة الذاتية، إلاّ أنها تنتمي فنياً إلى السرديات، من هنا كان من اليسير إخضاعها للدراسات التحليلية للكشف عن الملامح الجمالية التي انطوى عليها النص، حيث أدت السيرة قابلية للتحليلها وفق أحدث النظريات السردية.

ج-بدا المكان عنصراً فاعلاً في نص موضوع الدراسة، اذ أسهم مع الشخصيات في بناء النص؛ فلم يكن من السهل الفصل بين الشخصية وهي العنصر الرئيس في الكتاب بوصفه سيرة ذاتية، وبين المكان؛ فالسيرة تتناول جوانب من حياة الشيخ محمد بن راشد التي ارتبطت بالعديد من الأماكن، مثل دبي، ولندن، وبيروت...

د-أدى زخم الحياة التي عاشها مؤلف السيرة إلى تنوع أنواع الأماكن التي اتسعت لتشمل بلداناً، ومدناً، وصحاري، وبحاراً، حيث تنوعت بين أماكن عامة، وأماكن خاصة، وأماكن مفتوحة، وأماكن مغلقة، وأماكن متحركة.

هـ-قام مؤلف السيرة بتقديم المكان السردي من خلال فعل التجوال في أماكن أقام فيها، أو من خلال عملية التذكر باستحضار أماكن لم يتسنّ له العيش فيها؛ كحديثه عن دبي القديمة في زمن أسلافه المؤسسين.

و- استطاع المؤلف أن يعمق من دور المكان في النص؛ فلم يجعل منه مجرد مكان فيزيقي، بل رأيناه يمنح المكان أبعاداً دلالية، زادت من القيمة الفنية والجمالية للمكان؛ فراح يصبغ المكان بدلالة تعبيرية مرة، وبدلالة دينية مرة أخرى، وبدلالات نفسية وسياسية مرة

ثالثة، الأمر الذي جعلنا نتوقف كثيراً ونحن نتعامل مع هذه الأماكن التي بدت أماكن شديدة الخصوصية، لا يمكن التغاضي عن أدوارها الفنية في إنتاج النص.

ز- استطيع القول- بما لا يدع مجالاً للشك- إنّ المكان هو البطل الحقيقي في سيرة الشيخ محمد بن راشد؛ فهو تعمد الحديث عن دبي أكثر من الحديث عن نفسه؛ فبدا النص وكأنه سيرة تأريخيه لمدينة دبي.

ح- أدى المكان أيضاً العديد من الوظائف الأخرى؛ فكان مصدراً للمعرفة والتعلم مثل ما حدث معه وهو في الصحراء في بداية حكاية، وكذلك تعلمه الكثير من الفنون العسكرية في مدينة الضباب (لندن). كما بدا المكان وكأنه كائن حي يسهم في إذكاء مشاعر شخصياته، من خلال قيام المكان بالكشف عن هذه المشاعر الإنسانية وتوطيد أواصر العلاقات بين ساكنيه، اذ ظهرت حالة العشق التي ربطت الشيخ محمد بدبي.

ط-لما كان المكان هو العنصر الأبرز في سيرة الشيخ محمد؛ فكان من الطبيعي أنْ يتلاحم هذا المكان مع عنصر الزمن الذي ظهر لدينا في حديثة عن قيام دولة الإمارات بين عامي ١٩٦٨-١٩٧١م.

ي- بدا جلياً اهتمام كاتب السيرة بسرد الأحداث، واستبطان المشاعر الإنسانية على حساب تقديم الصور الوصفية التي جاءت نادرة في النص، ومع ذلك لم يخلُ النص من بعض اللوحات الوصفية القصيرة، كوصفه لتداعيات العاصفة التي ضربت دبي وهو صغير، ووصفه لبساطة مدينة دبي أيام طفولته، ومقارنتها بجمال مدينة بيروت.

ك-إذا كانت شخصية الشيخ محمد، هي البطل الرئيس في النص، فإنّ اهتمامه بالمكان جعل منه العنصر الفني الآخر الذي أسهم في بناء النص؛ فإذا حاولنا فصل المكان عن دراسة النص فإنّ البناء الفني سيفقد الكثير من تماسكه الجمالي.

وهذا لا يلغي الدور الفني الذي لعبته العناصر السردية الأخرى في بناء النص، كالزمن الذي كان حاضراً بقوة، والرؤية الفنية للسارد التي أسهمت في شد أجزاء النص ببعضها البعض، إلى جانب التناص الذي كان ماثلاً بوضوح من خلال استحضار الشيخ محمد للعديد من الأبيات الشعرية، والمقولات المأثورة التي صدر بها بعض موضوعات كتابه، وأسهمت في خلق مراوحة فنية بين لغة النصوص المقتبسة، ولغة النص؛ مما أسهم في منح لغة النص عمقاً دلالياً خلال التنوع بين اللغة الشعرية واللغة التقريرية.

المصادر

١. آل مكتوم، محمد بن راشد(١٠١٨م)، قصتي، ط١، إكسبلورر لنشر والتوزيع دبي، الإمارات العربية المتحدة.

المراجع

١. إبراهيم، زكريا، (د.ت)، مشكلة البنية، (د.ط)، دار مصر للطباعة، مصر.
٢. البنا، بان، (٢٠٠٩م)، الفواعل السردية في الرواية الإسلامية المعاصرة، (د.ط)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن.
٣. الحاني، ناصر، (د.ت)، من مصطلحات الأدب العربي، (د.ط)، دار المعارف، مصر.
٤. الرويلي، ميجان والبازغي، سعد، (٢٠٠٢م)، دليل الناقد الادبي، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
٥. الغذامي، عبدالله محمد، (١٩٩٨م)، الخطيئة والتفكير من البنيوية إلى التشريعية، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
٦. القاضي، عبد المنعم زكريا، (٢٠٠٩م)، البنية السردية في الرواية دراسة في ثلاثية خيري شلبي، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،
٧. القاهرة.
٨. النعيمي، أحمد حمد، (٢٠٠٤م)، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، دار الفارس، لبنان.
٩. باشلار، جاستون، (١٩٨٤م)، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، ط٢، المؤسسة الجامعية لدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
١٠. بحراوي، حسن، (١٩٩٠م)، بنية الشكل الروائي الفضاء، الزمن، الشخصية، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان.
١١. برنس، جيرالد، (٢٠٠٣م)، قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ط١، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة.
١٢. جرييه، آلان روب، (د.ت)، نحو رواية جديدة، ترجمة: مصطفي إبراهيم مصطفى، تقديم لويس عوض، ط١، دار المعارف، مصر.
١٣. جنداري، إبراهيم، (٢٠٠٣م)، الفضاء الروائي في أدب جبرا إبراهيم جبرا، ط١، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
١٤. عباس، إبراهيم، (د.ت)، تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية، (د.ط)، منشورات الاتصال للنشر والتوزيع، الجزائر.
١٥. عبدالمسلم، طاهر، (٢٠٠٠م)، عبقرية الصورة والمكان، ط١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
١٦. عبدالنور، جبور، (١٩٧٩م)، المعجم الأدبي، ط١، دار العلم للملايين، لبنان، ١م.

١٧.قاسم، سيزا، (٢٠٠٢م)، القارئ والنص والعلامة والدلالة، (د.ط)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
١٨.قسومة، الصادق، (د.ت)، طرائق تحليل القصة، (د.ط)، دار الجنوب للنشر، تونس.
١٩.لحميداني، حميد، (١٩٩١م)، بنية النص السردي، منظور النقد الأدبي، ط١، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٢٠.مرتاض، عبدالملك، (١٩٩٨م)، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، (د.ط)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب، عالم المعرفة.
٢١.مرشد، أحمد، (٢٠٠٥م)، البنية والدلالة، في روايات إبراهيم نصر، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان.